فصل من «السيرة الذاتية»

الكلمات ...

بقلم جان بول سارتر
ترجمة الدكتور سهيل ادريس

تصدر قريبا جــدا عن « دار الاداب » التــرجمة الكاملة لــ « السيرة الذاتية » التي وضعها الكاتب الفرنسي الكبير جان بول سارتر عن حياته .
ويسر « الاداب » ان تنشر فيما يلي الفصل الاول من هذا الكتاب الذي يعتبر اروع ما نشر سارتر حتى الان، وقد عنونه بــ « الكلمات » .

في الالزاس ، حوالي عام ١٨٥٠ ، وافق معلم مرهق بالاولاد على ان يصبح سمانا . وقد اراد خالع الثوب الرهباني هذا تعويضا ، فما دام قد عدل عن تثقيف العقول ، فلا بد لواحد من ابنائه أن يهذب النفوس : وسيكون ثمة راع في الاسرة ، هو شارل ، اكبر الابناء . وتهرب شارل ، مؤثرا أن يعبر الطرق في اثر امرأة فارسة . وكان أن قلبت صورته على الجدار ، ومنع التلفظ باسمه . فلمن الدور ، بعد ذلك ؟ وأسرع اوغست، الابن الثاني ، يحذر حذو التضحية الابوية : فدخــل التجــارة ، والفى نفسه مرتاحا فيها . يبقى لويس الذي لم يكن له استعداد واضح: وأطبق الاب على هذا الفتى الهادىء وجعله راعيا بين ليلة وضحاها . وفيما بعد، دفع لويس الطاعة الى حد انجاب راع بدوره ، هــو ألبير شوايتزر، صاحب الحياة المعروفة . غير ان شارل لم يعثر ، في تلك الاثناء ، على فارسته ، وكانت بادرة أبيه الجميلة قد دمغته : فاحتفظ طوال حيــاته بحس السمو والرفعة ، ووجه همته لصنع مناسبات كبيرة من أحــداث صغيرة . انه لم يكن يحلم ، كما يتضح ، بان يتجنب رسالة الاسرة : وانما كان يتمنى ان يرصد نفسه لشكل معتدل من الروحانية ، لكهنوت يسمح له بمطاردة الفارسات . وكان التدريس مناسبــا : فاختار شارل ان يعلم الالمانية . وقد أنشأ أطروحة عن هانز ساشس ، وفضل المنهــج المباشر الذي ادعى فيما بعد أنه مخترعه ، ونشر بالاشتراك مع السيــد سيمونو Deutsches Lesebuch محترما ، ومارس حياة عملية سريعة في ماكون وليون وباريس . وفي باريس ، ألقى في احتفال توزيع الجوائز خطابا حظي بشرف التنويه : « سيدي الوزير، سيداتي، سادتي، ابنائي الاعزاء ، انكم لــن تحزروا ابــدا مــا سوف احدثكم عنه اليوم : الموسيقى ! » وكان يبدع في نظم قصائد المناسبات . وكان قد اعتاد ان يقول في اجتماعات الاسرة : « ان لويس هو التقي ، واوغست هو الاغنى، اما انا ، فالاذكى » . وكان الاخوة يضحكون ، وكانت زوجاتهم يــزممن شفاههن . وكان شارل شوايتزر قد تزوج في ماكون ابنة كاتب عــدل كاثوليكي ، تدعى لويز غيومان . وقد ازدرت رحلة شهر العسل : اذ كان قد خطفها قبل نهاية المأدبة وقذف بها الى القطار . وكانت لويز ما تزال تتحدث ، وهي في السبعين من عمرها ، عن « سلطة الكراث » التي قدمت لها في مطعم احدى المحطات : « كان يأخذ كل ما هو ابيض ، ويترك لــي الاخضر » . وقد قضيا خمسة عشر يوما في الالزاس من غير ان يغادرا الطاولة . وكان الاخوة يتداولون ، باللهجة الاقليميــة ، حكايات بذيئة ، وكان الراعي ، بين الفينة والفينة ، يلتفت نحو لويز ويترجم لها ، بدافع من الاحسان المسيحي . ولم يطل بها الوقت حتى استحصلت على شهادات مجاملة أعفتها من العلاقات الزوجية ومنحتها الحق بان تستقل بغرفتها، وكانت تتحدث عن الصداع الذي تعانيه ، واعتادت ان تلزم السرير ، وأخذت تحتقر الضجيج وألوان التحمس والهوس ، وكل جوانب الحيــاة المسرحية الخشنة التي كانت تعيشها اسرة شوايتزر .

وكانت هذه المرأة الحية الخبيثة تفكر تفكيرا صريحا وسيئا، لان زوجها كان يفكر تفكيرا طيبا وجانبيا . ولانه كان كاذبا سريع التصديق ، كانت تشك في كل شيء : « انهم يزعمون ان الارض تدور ، فما أدراهم بذلك ؟ » كان يحيط بها ممثلون افاضل ، فكان أن حقدت على التمثيل والفضيلة . وهذه الواقعية المرهفة الى ذلك الحد ، الضائعة وســط اسرة من الروحانيين الخشنين ، كانت من اتباع فولتير ، بالتحدي، من غير ان تقرأ فولتير . كانت لطيفة وسمينة ، وقحة وفكهة ، فأصبحت النفي المطلق ، وكانت برفع حاجبين ، وببسمة لا تكاد ترى ، تفتت جميع المواقف الكبرى ، لصالحها ، ومن غير ان يلحظ ذلك احد . وقد افترستها كبرياؤها السلبية وأنانيتها الرفضية . انها لم تكن ترى أحدا ، لكونها أشد اعتزازا من أن تحاول الاستيلاء على المكان الاول ، وأشد غرورا من ان تكتفي بالمكان الثاني . وكانت تقول : « اعرفوا كيف تجعلون النــاس يشتهونكم » . ولقد اشتهيت كثيرا ، ثم قل ذلك تدريجيا ، وانتهى الامر بالناس الى ان ينسوها ، لانهم لم يكونوا يرونها : ولم تغادر بعد ذلــك اريكتها او سريرها . اما اسرة شوايتزر التي كان افرادهــا من ذوي النزعة الطبيعية والطهرية ــ وهذا المزيج من الفضائل هو اقل ندرة ممــا يظن ــ فقد كانوا يحبون الكلمات الفجة التي كانت ، فيما هي تحــط الجسد بطريقة مسيحية جدا ، تعبر عن اقرارهم العميق بالوظائــف الطبيعية : اما لوزير فقد كانت تحب الكلمات المغطاة . وكانت تقرأ كثيرا من الروايات الخفيفة التي كانت تقدّر حبكتها أقل مما تقدر الغلالات الشفافة التي كانت تسربلها ، وكانت تقول بلهجة رهيفة: « ان ذلك جريء، وهو مكتوب ببراعة . فانسلوا برفق ، ايها الناس الفانون ، ولا تلحوا ! »

وقد ظنت هذه المرأة انها ستموت من فرط الضحك لدى قراءتها « فتاة النار » لادولف بيلو . وكان يروقها ان تروي حكايات الليــالي الاولى للاعراس التي كانت تنتهي دائما نهايات سيئة : فتارة كان العريس، وهو في أبان استعجاله المتوحش ، يدق عنق زوجته بخشب السريــر ، وطورا كانت العروس هي التي توجد ، في الصباح ، وقد اعتلت الخزانة عارية ، مستطارة اللب . وكانت لويز تعيش في الظل ، وكان شارل يدخل عليها ، فيدفع المصاريع، ويشعل جميع المصابيح، فكانت تئن وهي ترفع يدها الى عينيها : « شارل ، انك تبهرني ! » ولكن الوان مقاومتها لم تكن تتعدى

حدود معارضة تشريعية : كان شارل يوحي لهـا بالخوف ، وبانزعـاج عجيب ، وأحيانا بالصداقة ايضا ، شريطة ألا يمسها . وكانت ترضخ له في كل شيء حين يأخذ في الصراخ . ولقد أولدها اربعة اولاد بشكـل مفاجيء : بنتا ماتت في حداثة السن ، وصبيين ، وبنتا اخرى . وكان قد سمح بتربيتهم تربية دينية كاثوليكية ، بدافع من لامبالاة او احترام . وقد جعلتهم لويز ، وهي اللامؤمنة ، مؤمنين ، بدافع من نفورها مـن البروتستانتية . وقد انحاز الصبيّان الى أمهما : فقد أبعدتهما برفق عن هذا الاب الضخم ، وتم ذلك ، حتى من غير ان يلاحظ شارل الامر. ودخل كبيرهما ، جورج ، معهد البوليتكنيك ، وأصبح الثاني ، اميل ، استاذا للغة الالمانية . انه يثير فضولي : فانا أعلم انه ظل عازبا ، ولكنه كان يقلد أباه في كل شيء ، بالرغم من انه لم يحبه . وانتهى الامر بالاب والابن الى التخاصم ، وحدثت بعد ذلك مصالحات شهيرة . وأما أميل ، فكان يخفي حياته ، كان يعبد أمه ، واحتفظ حتى النهاية بعادته في ان يقوم بزيارات سرية لها ، من غير ان يبلغها ، وكان يغطيها بالقبلات والملامسات، ثم يأخذ في التحدث عن الاب ، بلهجة ساخرة اولا ، ثم بغضب ، ويتركها وهو يصفق الباب . وأعتقد انها كانت تحبه ، ولكنه كان يخيفها : كـان هذان الرجلان الفظان والصعبان يتعبانها ، وكانت تؤثر عليهما جـورج الذي لم يكن حاضرا هناك قط . وقد مات اميل عام ١٩٢٧ ، مجنونا بسبب الوحدة : فقد عثر تحت وسادته على مسدس ، وعثر في صناديقه على مئة زوج من الجوارب المثقوبة ، وعشرين زوجا من الاحذية المعقوفة.

واما آن ماري ، الفتاة الصغرى ، فقد قضت طفولتها على كرسي . وقد علموها أن تسأم ، وان تقف باستقامة ، وان تخيط . وكـانت لها مواهب : وقد حسبوا ان من الامتياز تركها بورا . وكـان لها جمال: فحرصوا على اخفائه عنها . لقد كان هؤلاء البورجوازيون المتواضعـون الفخورون يرون الجمال فوق مستوى وسائلهم ودون وضعهم ، فكانـوا يسمحون به للمركيزات والبغايا . كانت لويز تملك اشد انواع الكبرياء جفافا : فخشية ان تخدع ، كانت تنكر لدى اولادها ، ولدى زوجهـا ، ولديها هي نفسها ، أوضح المزايا واكثرها بداهة ، ولم يكن شارل يحسن الاعتراف بالجمال لدى الاخرين ، اذ كان لا يميزه عن الصحة : فمنـذ سقطت زوجته مريضة ، كان يتعزى منها بصحبة نساء مثاليات ذوات شوارب وألوان ، وصحة جيدة . وبعد مضي خمسين عاما ، لاحظت آن ماري ، وهي تقلب مجموعة من صور الاسرة، انها كانت في الماضي جميلة.

وفي الوقت نفسه تقريبا الذي كان شارل شوايتزر يلتقي فيه لويز غويومان ، تزوج طبيب ريفي ابنة ملاك من بيريغورد ، وأقام معها في شارع تيفيه الكبير الحزين ، تجاه الصيدلي . وفي اليوم التالي للزواج، اكتشف ان ابا العروس كان في فقر مدقع . فحنق الدكتور سارتر وظل اربعين عاما لا يوجه كلمة الى زوجته ، وكان على المائدة يعبر عن رغباته بالاشارات، وانتهى بها الامر الى ان تسميه « نزيلي » . على انه كان يقاسمهـا الفراش ، وكان بين الحين والحين ، يجعلها حاملا ، من غير ان يقـول كلمة : وقد وهبته ذكرين وانثى ، وكان ابناء الصمت هؤلاء يدعون جـان باتيست ، وجوزيف ، وهيلين . وقد تزوجت هيلين في اواخر حياتهـا ضابطا في كتيبة الفرسان ما لبث ان جن ، واما جوزيف فقد قضى خدمته العسكرية في فرقة المشاة الزواوية (١) ثم عاد مبكرا الى منـزل ابويه . ولم تكن له مهنة : ذلك انه أصبح لجلاج اللسان بين صمت الاب وصراخ الام، وأنفق حياته في صراع مع الكلمات. وأراد جان باتيست ان يهييء شهادة البحرية ، لكي ينعم برؤية البحر . وفي عام ١٩٠٤ ، حين كان في « برست » ضابط بحرية، وقد تآكلته حميات الهند الصينية، تعرف الى آن ماري شوايتزر ، فاستولى على هذه الفتاة الطويلة المتروكة وتزوجها ، وأولدها ، وهو يكاد يعدو ، ابنا هو أنا ، وحاول ان يجد له ملجأ في الموت .

ولم يكن الموت بالامر اليسير ، كانت الحمى المعوية تصعد بلا عجلة ، وقد عرفت عدة هجمات . وكانت آن ـ ماري تعنى به في اخلاص، ولكن من غير ان تدفع عدم الحشمة الى حد أن تحبه . كانت لويز قد حذرتها من الحياة الزوجية : فانها بعـد عرس الـدم ، سلسلة لا تنتهي مـن التضحيات ، تتخللها ابتذالات ليلية . وآثرت امي ، عـلى غرار امها، الواجب على اللذة . ولم تكن قد عرفت ابي كثيرا ، لا قبل الزواج ولا بعده ، فكان لا بد لها احيانا من ان تتساءل لماذا اختار هذا الغريب ان يموت بين ذراعيها . وقد نقل الى مزرعة تبعد عدة فراسخ عن « تيفيه»، وكان ابوه يقصده للزيارة كل يوم في عربة . وقد استنفد السهر والهم قوى آن ماري ، فنضب لبنها ، وكان ان عهدوا بي الى مرضع هناك، غير بعيدة ، فاجتهدت انا ايضا في ان اموت : بالتهاب الامعاء وربمـا ببقايـا مرض أبوي . لقد كانت امي ، وهي في العشرين من عمرها ، بـلا تجربة ولا نصائح ، تتمزق بين محتضرين مجهولين : كان زواجها العقلي، يجد حقيقته في المرض والحداد . وكنت أنا أفيد من الوضـع : فقد كانت النساء ، في ذلك العهد ، يرضعن بانفسهن ولمدة طويلة ، ولولا الحـظ الذي واتاني من هذا الاحتضار المزدوج ، لتعرضت لمصاعـب عبودية متأخرة . لقد فطمت قسرا في الشهر التاسع ، وانا مريض ، فمنعتني الحمى والتخبّل من الشعور بآخر ضربة مقص قطعت صلات الام والولد، وغطست في عالم ملتاث ، تعمره هلسنات بسيطة وأصنام فظة. وعنـد موت أبي ، استيقظت انا وآن ماري من كابوس مشترك ، وشفيت. ولكننا كنا ضحية سوء تفاهم : لقد كانت تلتقي من جديد ، في حب ، ابنا لم تتركه من قبل قط ، وكنت استعيد وعيي على ركبتي امرأة أجنبية .

وعزمت آن ماري ، وهي بلا مال ولا مهنة ، على العودة الى بيت ابويها . ولكن الموت الوقح الذي أصاب ابي كان قد أغم اسرة شوايتزر: لقد كان مفرط الشبه بالطلاق . ولان امي لم تحسـن التنبؤ بـه ولا الاحتياط له ، فقد حكم بأنها مذنبة : ذلك انها كانت قد اتخذت لها، في طيش ، زوجا لم تسبق له تجربة . ولقد كان الجميع مرحبين بـ «أريان» التي عادت الى « مودون » وبين ذراعيها طفل : كان جدي قد طلب احالته على التقاعد ، فاستعاد الخدمة بلا كلمة عتاب ، وجدتي نفسها أخفـت شعورها بالانتصار . واما آن ماري ، فقد كانت تحزر ، وهـي مثلجـة بالعرفان ، التوبيخ في الاساليب اللطيفة : صحيح أن الاسر تفضل الارامل على العوانس ، ولكنها تكاد لا تفضلهن . ولكي تستحق الغفران ، بذلت نفسها بلا شح ، وأشرفت على منزل والديها ، في مودون ثم في باريس ،

(١) اسم قبيلة في منطقة القبائل بالجزائرية. «المترجم» .

صدر حديثا :

الحـوار الاخرس

ليلى عسيران — رواية

دار الطليعة ـ بيروت ص. ب ١٨١٣

وجعلت نفسها مربية ، وممرضة ، ورئيسة خدم المائدة ، وسيدة مرافقة، وخادمة ، من غير ان تتمكن من القضاء على ضيق امها الابكم. وكانت لويز تجد مضجرا أن تضع لائحة الطعام كل صباح وان تجمع الحساب كل مساء ، ولكنها كانت لا تطيق ، الا على مضض ، ان يقوم غيرها بذلك، فكانت تتخلى عن واجباتها وهي مغتاظة أن تفقد حقوقها . ولم يكن لهذه المرأة الوقحة التي تشيخ الا وهم واحد : كانت تحسب نفسها لا غنى عنها . وتلاشى الوهم : فأخذت لويز تغار من ابنتها . فيا لآن ماري المسكينة : اذا لزمت الصمت والهدوء ، وصفت بأنها عبء ، واذا ابدت النشاط والحيوية ، اتهمت بأنها تريد أن تحكم البيت . ومن أجل تحاشي العقبة الاولى ، كانت بحاجة الى شجاعتها كلها ، ومن أجل تحاشي الثانية ، كانت بحاجةالى كل ذلها : فجعلت نفسها عبدا . ولم يلزم وقت طويل لتعود الأرمل الشابة فتصبح قاصرة : عذراء ذات لطخة . ولم يكونوا يمنعون عنها مصروف الجيب ، وانما كانوا ينسون منحها اياه ، ولقد أبلت ملابسها حتى اخر خيط ، من غير ان يتنبه جدي الى ضرورة تجديدها لها . وكادوا لا يسمحون لها بان تخرج وحدها. وحين كانت صديقاتها القديمات ، ومعظمهن متزوجات ، يدعونها الى العشاء، كان ينبغي الاستئذان مقدما قبل وقت طويل والوعد باعادتها قبل الساعة العاشرة . وكان رب البيت ينهض عن المائدة ، في وسط الطعام ، ليعود بها في السيارة . وفي هذه الاثناء ، يكون جدي في قميص النوم، يذرع الغرفة جيئة وذهابا ،وساعته في يده . فاذا دقت الدقة الاخيرة من الساعة العاشرة ، بدأ يبرق ويرعد . وتدنت الدعوات ، وزهدت أمي بمثل تلك المتع الغالية الى ذلك الحد .

لقد كان موت جان باتيست قضية حياتي الكبرى : ذلك انها ردت أمي الى أغلالها ومنحتني الحرية .

❋ ❋ ❋

ليس هناك اب صالح ، تلك هي القاعدة ، ولا يكن في ذلك مأخذ على الرجال ، بل على صلة الابوة التي هي فاسدة . ليس هناك أفضل من انجاب الاولاد ، ولكن أي ظلم أن « يكون » لنا أولاد ! لو أن أبي عاش، لاضطجع علي بكل جسمه ، ولسحقني . فمن حظ انه مات في سن مبكرة، ووسط رجال أمثال « اينيه » يحملون على ظهورهم آباءهم «انشيز» (١)، عبرتُ شطا الى شط ، وحيدا ومزدريا اولئك الاباء اللامرئيين المعتلين ظهور أبنائهم طوال الحياة ، وخلفت ورائي ميتا فتيا لم يتح له وقت كاف لكي يكون أبي، ويمكن اليوم ان يكون ابني . أكان ذلك شرا ام خيرا؟ لست أدري ، ولكنى أقر طوعا حكم عالم نفس تحليلي باني: ليس لي «انا فوقية » Surmoi

وليس الموت هو كل شيء : فينبغي للمرء ان يموت في الاوان. لقد أحسست ، فيما بعد ، باني مذنب ، ان اليتيم الواعي يسيء الى نفسه: لقد اغتاظ والداه من رؤيته ، فانسحبا الى منزلهما السماوي. اما انا، فكنت مفتونا : كان وضعي المحزن يفرض الاحترام ، ويرسي أساس أهميتي ، وكنت أعد حدادي من جملة فضائلي . لقد أوتي أبي ظرافة ان يموت بسبب أخطائه : فقد كانت جدتي تردد انه قد تهرب من واجباته، ولم يكن ابي ، المعتز بطول اعمار ال شوايتزر ، يقر ان يختفي احدهم وهو في الثلاثين ، وعلى ضوء تلك الميتة المشبوهة ، انتهى الى الارتياب بان يكون صهره قد وجد أصلا ، وانتهى الى نسيانه . اما انا ، فلم يكن لي حتى ان انساه : ذلك ان جان باتيست ، حين مضى على الطريقة الانكليزية (٢) ، انما حرمني متعة ان اتعرف اليه . وما زلت حتى اليوم أعجب من معلوماتي القليلة عنه . ومع ذلك ، فهو قد أحب ، وأراد ان يعيش ، ورأى نفسه يموت ، وذلك كاف لخلق رجل . ولكن لم يعرف احد في اسرتي أن يثير فضولي بصدد ذلك الرجل . وقد استطعت طوال عدة سنوات ان ارى ، فوق سريري ، صورة ضابط قصير ذي عينين بريئتين ، ورأس مستدير أصلع ، وشاربين كثيفين ، وحين تزوجت امي للمرة الثانية ، اختفت الصورة . وقد ورثت فيما بعد كتبا كانت تخصه: مؤلفا لـ « لودانتيك » عن مستقبل العلم ، واخر لـ « ويبر » بعنوان « نحو الوضعية عن طريق المثالية المطلقة » . لقد كان سيء الاختيار لكتب المطالعة ، شأن جميع معاصريه . وقد اكتشفت في الهوامش خربشات لا تفهم ، وهي علائم ميتة لاشراق صغير كان حيا متوهجا حوالي موعد ولادتي . وقد بعت الكتب : كان ذلك المرحوم قليلا ما يعنيني. انني أعرفه بالسماع ، كـ « القناع الحديدي » أو « فارس ايون » ، وما أعرفه منه لا يختص بي قط ، فلئن أحبني ، ولئن أخذني في ذراعيه ، ولئن أدار نحو ابنه عينيه الصافيتين ، المتآكلتين اليوم ، فان أحدا لم يحفظ من ذلك ذكرا : انها هموم حب ضائعة . بل ان هذا الاب ليس حتى ظلا ، ليس حتى نظرا : كل ما في الامر ، اننا كلينا ثقلنا ، ردحا من الزمن ، على الارض نفسها . لقد افهموني انني كنت ابن معجزة ، اكثر مما كنت ابن ميت . وهذا ، بلا ادنى شك ، مصدر خفتي التي لا تصدق. انني لست قائدا ، ولا أصبو الى ان أصبحه . فالقيادة والطاعة : شيء واحد . ان أشد متسلط يقود باسم رجل اخر ، طفيلي مقدس - ابيه - وينقل الوان العنف المجردة التي يتلقاها . وأنا ، حياتي ، لم أعط امرا من غير ان أضحك ، ومن غير أن أضحك ، ذلك انني لا تقرضني قرحة السلطة : انهم لم يعلموني الطاعة .

ومن عساني أطيع ؟ انهم يدلونني على عملاقة فتية ، ويقولون لي انها امي . ولو كان لي الامر لحسبتها بالاحرى اختا كبيرة لي . تلك العذراء في الاقامة المراقبة ، الخاضعة للجميع ، ارى جيدا نها انما هي قائمة هنا لتخدمني ، انني أحبها ، ولكن كيف تراني أحترمها ، ان لم يحترمها أحد ؟ ان في بيتنا ثلاث غرف : غرفة جدي ، وغرفة جدتي ، وغرفة « الاولاد » . و « الاولاد » هم نحن كلانا : المتشابهان في اننا قاصران، ومعالان . ولكن جميع ضروب الرعاية محفوظة لي : ففي « غرفتي »وضعوا سرير فتاة صبية . وتنام الصبية وحدها ، وتستيقظ بطهارة ، وأكون نائما بعد حين تهرع لتأخذ « حمامها » ، وتعود وقد ارتدت كل ثيابها: فكيف أكون قد ولدت منها ؟ انها تروي لي مصائبها ، فأصغي اليها في مشاركة : سأتزوجها فيما بعد لاحميها . وأعدها بذلك : سأبسط يدي فوقها ، وسأجعل أهميتي الفتية في خدمتها . فهل يظن أني سأطيعها ؟ ان لدي طيبة ان استجيب لابتهالاتها . والحق انها لا تصدر الي أوامر : انها ترسم بكلمات خفيفة مستقبلا تثني علي أن أريد تحقيقه : « سيكون حبيبي الصغير لطيفا ، وعاقلا ، وسيتركني أقطر له في أنفه بكل لطف». وكنت اتداعى للوقوع في شرك هذه التنبؤات الناعمة .

ويبقى البطريرك : وقد كان يشبه « أبانا الرب » حتى كان غالبا ما يظن انه هو . وقد دخل ذات يوم الى كنيسة من الموهف ، وكان الخوري ينذر الفاترين بالصواعق السماوية : « ان الرب موجود هنا ! انه يراكم ! » واكتشف المؤمنون فجأة ، تحت المنبر ، رجلا عجوزا طويلا ملتحيا ينظر اليهم : فلاذوا بالفرار . وكان جدي يقول انهم ، في مناسبات اخرى ، قد انحنوا راكعين . واستلذ هذه التجليات . وفي شهر ايلول ١٩١٤ ، تجلى في دار سينما بمدينة « اركاشون » : وكنا انا وامي على الشرفة حين طلب اضاءة النور ، وكان بعض السادة الاخرين يحيطون به كالملائكة ويصيحون « النصر ! النصر ! » . وصعد الرب الى المسرح وقرأ بلاغ « المارن » . ويوم كانت لحيته سوداء ، كان يهوه ، وانا أرتاب في ان يكون أميل قد مات بسببه ، بصورة غير مباشرة . وقد كان رب الغضب هذا يكتظ من دم أبنائه . ولكني كنت أتجلى في نهاية حياته الطويلة ، وكانت لحيته قد ابيضت ، وكان التبغ قد جعله يصفر. وكانت الابوة قد كفت عن ان تسليه . ومع ذلك ، فلو أنه أنجبني ، لما امتنع، كما أظهر ، عن استعبادي : بدافع العادة . وكان حظي ان أنتمي الى ميت: كان ميت قد صب بضع قطرات من منيّ هي الثمن العادي لطفل، كنت اقطاعا للشمس ، فكان بوسع جدي ان يتمتع بي من غير ان يمتلكني :

---

(١) اينيه امير طروادي جعله فيرجيل بطل « انياذته » وهو ابن افروديت وانشيز ، وقد حارب الاغريق بشجاعة في أثناء حصار طروادة، وحين سقطت المدينة ، فر حاملا على ظهره أباه انشيز ومصطحبا ابنه ايول او اسكاني . (المترجم) .

(٢) اي بلا استئذان ... « المترجم » .

كنت « أعجوبته » لانه يتمنى ان ينهي أيامه عجوزا مندهشا ، وقد عزم ان يعتبرني حظوة من القدر فريدة ، هبة مجانية قابلة أبدا للالغاء ، وما كان عساه يطلب مني ؟ كنت املاه بحضوري وحده . لقد كان « آله المحبة » لحية « الاب » و « قلب الابن المقدس » لقد كان يضع يديه على رأسي ، وكنت أحس حرارة راحته ، وكان يدعوني بصغيره بصوت يرتعش حنانا ، وكانت الدموع تندي عينيه الباردتين . وكان الجميع يصيحون: « ان هذا الشقي قد أطار صوابه ! » كان يعبدني ، وكان ذلك واضحا. ترى ، هل كان يحبني ؟ انه يشق علي ان اميز في عاطفة عامة الى هذا الحد بين الاخلاص والتصنع : فانا لا اعتقد انه قد أثبت عن حب كبير لاحفاده الاخرين ، ويبقى صحيحا انه لم يكن يراهم قط ، وانهم لم يكونوا بأية حاجة اليه . اما انا ، فكنت تابعا له في كل شيء : فكان يعبد في سخاءه .

وفي الحقيقة ، كان يبالغ في تطلب النبالة : كان رجلا من القرن التاسع عشر كان يحسب نفسه فكتور هوغو ، ككثيرين غيره ، وكفكتور هوغو نفسه . وانا أعتبر هذا الرجل الجميل ذا اللحية الفاخرة بين ضربتين من ضربات المسرح ، كشارب الخمر بين قدحي خمر ، ضحية تكنيكين مكتشفين حديثا : فن المصور ، وفن ان يكون المرء جدا ، وقد كان من حظه ومصيبته انه كان قابلا للتصوير ، وكانت صوره تملأ البيت: ولما كانت طريقة الصورة السريعة غير مستعملة ، فقد كسب من ذلك حس الاوضاع واللوحات الحية ، فكان كل شيء حجة لديه لتعليق حركاته ، وللتسمر في وضع جميل ، وللتحجر ، وكان يجن عشقا بلحظات الخلود القصيرة تلك التي كان يصبح فيها تمثاله بالذات . وانا لم أحتفظ منه بسبب كلفه باللوحات الحية ــ الا بصور صلبة من صور الفانوس السحري : رسم خلفيته تمثل غابة ، وانا جالس على جذع شجرة، ولي من العمر خمس سنوات ، ويرتدي شارل شواتيزر قبعة طرية ، وثوبا من الفلانيل ذا خطوط سود ، وصدرة منقطة بالبياض ، تعترضها سلسلة ساعة ، واما منظاره فيتدلى من طرف حبل صغير ، وهو منحن فوقي يرفع اصبعا ذا خاتم ذهبي ، ويتكلم . ان كل شيء مظلم ، وكل شيء رطب ، ما عدا لحيته الشمسية : انه يحمل اكليله حول ذقنه . ولا ادري ماذا يقول : فقد كنت أكثر اهتماما للاصغاء من أن أسمع . واحسب ان هذا الجمهوري الامبراطوري العجوز كان يلقنني واجباتي المدنية ويروي لي التاريخ البورجوازي ، لقد كان ثمة ملوك وأباطرة ، وكانوا شريرين جدا ، وكانوا قد طردوا ، وكان كل شيء يجري على ما يرام . وحين كنا نذهب مساء لانتظاره على الطريق ، كنا ما نلبث ان نتعرفه في جمع المسافرين الخارجين من القطار الكهربائي ، بفضل قامته الطويلة ومشيته الشبيهة بمشية معلم الرقص . ومن أبعد مكان يرانا منه ، كان « يتوضع » ليستجيب الى اوامر مصور غير مرئي : فيترك لحيته للريح ، وجسمه مستقيما ، وقدميه في زاوية مثلثه ، وصدره بارزا ، وذراعيه منفرجتين . وكنت ، ازاء هذه الاشارة اتجمد ، فانحني الى أمام ، شبيها بالعداء الذي يستعد للانطلاق ، والعصفور الذي يهم بالخروج من الالة ، وكنا نبقى لحظات وجها لوجه ، أشبه بفريق جميل من « ساكس » ، ثم كنت أنطلق ، محملا بالفاكهة والزهور ، وبسعادة جدي ، فامضي لاصطدم بين ركبتيه وانا ألهث لهاثا مصطنعا ، وكان يرفعني عن الارض ، ويحملني الى الغيوم، على طرف ذراعه ، ثم يلقي بي الى قلبه وهو يتمتم : « يا كنزي ! » وكان هذا هو الشكل الثاني في التمرين ، وكان المارة يلاحظونه تماما . لقد كنا نمثل مسرحية كبيرة ذات مئة فصل مختلفة : الغزل ، ضروب سوء التفاهم التي سرعان ما تبدد ، المناكدات الصابرة ، التوبيخات اللطيفة ، الحزن الغرامي ، المسارة الرقيقة والحب المهووس ، وكنا نتصور عقبات لحبنا لنمنح نفسينا فرحة ازاحتها : ولقد كنت أتخذ احيانا لهجة الامر ، ولكن الاهواء لم تكن تستطيع تقنيع حساسيتي اللذيذة ، وكان هو يظهر الغرور النبيل والساذج الذي كان يلائم الاجداد ، والعناد ، وضروب الضعف المذنبة التي يوصي بها هوغو. فلو أعطيت خبزا جافا ، لحمل الي المربيات، ولكن المرأتين المذعورتين كانتا تتجنبان اعطائي الخبز الجاف . ثم انني كنت صبيا عاقلا : لقد كنت أجد دوري ملائما الى حد اني لم اكن أخرج منه . والحق ان تقاعد ابي السريع كان قد منحني « اوديبا » ناقصا تماما : صحيح انه لم يكن لي « أنا فوقية » ، ولكن لم يكن لي كذلك ايضا أي خلق عدواني. لقد كانت امي لي ، ولم يكن ثمة من ينكر علي امتلاكها الهادئ : كنت اجهل العنف والحقد ، فوفروا علي ذلك التلقين القاسي ، الحسد ، ولاني لم أصطدم بزوايا الحقيقة الواقعة ، لم اعرفها اول الامر الا عبر ميوعتها الضاحكة . وعلى من ، وضد من ، كان عساي أن أتمرد ؟ انه لم يحدث قط ان انتصب هوى انسان اخر قانونا لي.

كنت أسمح بلطف ان يلبسوني حذائي ، وان يقطروا لي في أنفي ، وان ينظفوا ثوبي بالفرشاة وان يغسلوني ، وان يلبسوني ثيابي وينزعوها عني ، وان يزينوني وان يفركوني . انني لا أعرف ما هو اكثر تسلية من ان يمثل المرء ان يكون عاقلا . انني لا ابكي ابدا ، ولا اضحك ابدا، ولا أحدث اية ضجة ، وقد ضبطوني يوما ، وكنت في الرابعة ، وانا أضع الملح في المربى ، وأحسب ان ذلك كان بدافع من حب العلم ، اكثر مما كان بدافع من خبث ، وذلك على أي حال هو الجرم الوحيد الذي احتفظت بذكراه . وتانك السيدتان تذهبان يوم الاحد احيانا الى القداس لتستمعا الى الموسيقى الجميلة يعزفها عازف ارغن مشهور . انهما لا تمارسان الشعائر الدينية ، لا هذه ولا تلك ، ولكن ايمان الاخرين يدعهما للنشوة الموسيقية ، انهما تؤمنان بالله ساعة تستمعان بلحن جميل . ولحظات الروحانية السامية تلك هي متعتي الكبرى : فالجميع يبدو عليهم انهم نيام ، وتلك هي الحالة التي يتاح لي فيها ان أظهر ما أعرف ان افعله : انني احول نفسي الى تمثال ، وانا جاثم على المركع ، ينبغي الا احرك حتى ابهام رجلي ، وانظر باستقامة امامي ، من غير ان تطرف جفوني ، الى ان تتدحرج الدموع على خدي ، انني بالطبع اشهر معركة جبابرة ضد النمل، ولكني واثق من النصر ، عظيم الاحساس بقوتي حتى اني لا اتردد بأن ابتعث في نفسي أشد الاغراءات اجراما لامنح ذاتي لذة مدافعتها : فماذا لو نهضت وصرخت : « بادابوم ! » ؟ وماذا لو تسلقت العمود لابول في جرن الماء المقدس ؟ ان هذه الذكريات الفظيعة ستمنح تهاني أمي ، عما قليل ، قيمة اكبر . ولكني أكذب على نفسي ، أتصنع أني في خطر لازيد مجدي : ان الاغراءات لم تكن لحظة مدوخة ، انني اخشى الفضيحة اكثر مما ينبغي، واذا شئت ان اثير الدهشة، فبفضائلي. وهذه الانتصارات السهلة تقنعني اني أملك طبعا طيبا ، فليس لي الا ان استسلم له لكي يرهقوني بالمديح . ان الرغائب الشريرة والافكار السيئة، اذا وجدت ، فانما تأتي من الخارج ، فما ان تدخل في حتى تسترخي وتجف : انني ارض غير خصبة للشر . ولئن كنت فاضلا بالتمثيل ، فاني لا أقسر نفسي قط ولا أجبرها : بل أخترع . انني املك الحرية الاميرية التي يملكها الممثل الذي يمسك على الجمهور انفاسه ويقتل دوره ارهافا. انهم يعبدونني ، فانا اذن قابل للعبادة . فأي شيء أبسط من هذا، ما دام العالم مصنوعا صنعا جيدا ؟ يقال لي انني جميل ، فأصدق ذلك .

الحركة العربية الواحدة

بقلم

عبد الله الريماوي

انني منذ حين احمل في عيني اليمنى الغشاوة التي ستجعلني اعور أو أحول ، ولكن لا يظهر من ذلك شيء بعد . وتؤخذ لي مئة صورة ترتوشها أمي باقلام ملونة. وفي احداها وقد بقيت ، أبدو موردًا أشقر، بخصلات شعر معقوفة ، والخد مستدير ، وفي النظر احترام حفي للنظام القائم ، وخصلة الشعر منفوخة بغطرسة منافقة : انني اعرف قيمتي.

وليس يكفي ان يكون طبعي طيبا ، ينبغي ان يكون تنبؤيا : ان الحقيقة تخرج من فم الاولاد . انهم بعدُ قريبون من الطبيعة ، فهم ابناء عم الريح والبحر : وتمتماتهم تمنح من يحسن الاصغاء اليها تعاليم عريضة غامضة ولقد سبق لجدي أن عبر بحيرة جنيف بصحبة هنري برغسون، وكان يقول : « لقد كنت مجنونا من الحماسة ، ولم تكن لي عينان كافيتان لكي اتأمل القمم المشعة ، وأتابع انعكاسات الماء . اما برغسون، الجالس على حقيبة ، فانه لم يكف عن النظر فيما بين قدميه » . وكان يستنتج من هذا الحدث السفري أن التأمل الشاعري خير من الفلسفة . وقد وجه تأمله الي : كان يقتعد في الحديقة كرسيا قابلة للطي ، وقدح بيرة في متناول يده ، وهو ينظر الي أعدو وأقفز ، ويبحث عن حكمة في كلماتي المضطربة ، فيعثر عليها . وقد ضحكت فيما بعد من هذا الجنون، واني آسف لذلك : لقد كان هذا عمل الموت . كان شارل يحارب الضيق بالنشوة . وكان يتأمل في معجبا عمل الارض الرائع ليقتنع بأن كل شيء طيب ، وحتى نهايتنا الجديرة بالرثاء . وتلك الطبيعة التي كانت تتهيأ لاخذه مرة ثانية ، كان يذهب ليلتمسها على القمم ، وفي الامواج، ووسط النجوم ، وعند ينبوع حياتي الطفلة ، ليستطيع ان يعانقها بكليتها، ويتقبل كل شيء فيها ، حتى الحفرة التي كانت تنفغر له فيها . لم تكن هي « الحقيقة » بل كان « موته » الذي كان يتحدث اليه بلساني.
فليس هناك ما يدهش ان كان للسعادة البائخة التي عرفتها سنواتي الاولى مذاق مأتمي أحيانا : لقد كنت مدينا بحريتي لميتة ملائمة، وباهميتي لوفاة منتظرة جدا . ولكن ماذا : ان مثيلات « بيتي » (١) جميعا ميتات ، فكل انسان يعرف ذلك ، وجميع الاطفال هم مرايا الموت .

ثم ان جدي يروقه ان يبعص اولاده . لقد قضى هذا الاب الفظيع حياته في سحقهم ، انهم يدخلون على رؤوس أصابعهم فيفاجئونه عند ركبتي طفل : مما كان يفجر قلوبهم غيظا . ان الاطفال والشيوخ ، في صراع الاجيال ، غالبا ما يشكلون قضية مشتركة : فالاولون يأتون المعجزات ، والاخرون يحلون ألغازها . ان « الطبيعة » تتكلم ، والتجربة تترجم : فلا يبقى للراشدين الا ان يسدوا أفواههم. فان لم يوجد الطفل، فليؤخذ جرو : لقد تعرفت ، في العام الماضي ، في مقبرة الكلاب ، الى حكم جدي ، في الخطاب الراعش الذي يتتابع من قبر الى قبر : ان الكلاب تعرف ان تحب ، انها أرق من البشر ، وأشد اخلاصا ، وان لها بصيرة وفطنة ، غريزة لا تخطيء تتيح لها ان تتعرف الخير ، وان تميز الطيبين من الاشرار . كانت امرأة تحدث كلبها الميت بلهجة لا عزاء فيها: « انك يا بولونيوس أفضل مني : فلو مت قبلك لما ظللت حيا بعدي، أما انا ، فاظل حية بعدك » . وكان يرافقني صديق اميركي ، وكان مغتاظا، فركل بقدمه كلبا من الاسمنت وكسر له اذنه . وكان على حق : ان الاولاد والكلاب ، اذا احببناهم « اكثر مما ينبغي » ، فانما نحبهم ضد البشر.

واذن ، فانا جرو مستقبل ، انني اتنبأ . وأتلفظ بكلمات طفل، فتحفظ ، وتردد على مسمعي : وأتعلم أن أصنع منها سواها . ان لي كلمات رجل : فانا أحسن النطق بعبارات « تفوق سني » . وهذه الاحاديث قصائد : والوصفة بسيطة : يجب الاتكال على « الشيطان » ، على المصادفة ، على الفراغ ، واستعارة عبارات كاملة من الراشدين ، ووضعها الواحدة تلو الاخرى ، ثم ترديدها بلا فهم . وبالاختصار فاني آتي معجزات حقيقية ، وكل انسان يفهمها كما يشاء. ان « الخير » يولد في أعمق أعماق قلبي ، و « الحق » في ظلمات « ادراكي » الفتية . واني اتأمل نفسي معجبا في ثقة : ذلك ان حركاتي وكلماتي تتميز بصفة تفوتني وتقفز في عيون الاشخاص الكبار : فماذا يهم ! انني سامنحهم بلا تباطؤ المتعة الدقيقة التي أحرم منها . وتتخذ مداعباتي مظاهر الكرم الخارجية: لقد كان اشخاص مساكين يعبرون عن اساهم الا يرزقوا ولدا ، وتأخذني الشفقة ، فانسحب من العدم في موجة حماسية من الاحساس بالغيرية ، وأرتدي لباس الطفولة التنكري لامنحهم وهمَ ان لهم ولدا . وتدعوني امي وجدتي غالبا الى ان اكرر عمل الطيبة العظيمة التي منحتني الحياة: انهما تتملقان رغائب شارل شوايتزر ، وكلفه بالضربات المسرحية ، وتدبران له مفاجئات : كأن تخفياني خلف قطعة أثاث ، فأمسك نفسي، وتغادر المرأتان القاعة او تتظاهران بنسياني ، فاتلاشى ، ويدخل جدي القاعة ، كئيبا متعبا ، كما سيكون لو لم آكن موجودا ، وفجأة، اخرج من مخبئي ، فامنحه نعمة أن أولد ، ويلمحني ، فيدخل في اللعبة ، ويغير وجهه ، ويرمي ذراعيه الى السماء : انني أملأه بحضوري . انني بكلمة واحدة أهب نفسي ، أهب نفسي دائما وفي كل مكان ، أهب كل شيء : وحسبي ان أدفع بابا ، لاحس انا ايضا بأني أتجلى تجليا . وأضع مكعباتي واحدا فوق الاخر ، وأخرج معجناتي الرملية من قوالبها، وأنادي بصرخات عالية ، ويأتي من ينفجر متعجبا معجبا : وهكذا أكون قد أسعدت شخصا اخر . ان الطعام والنوم وألوان الوقاية ضد التقلبات تشكل الاعياد الرئيسية والواجبات الرئيسية في حياة احتفالية كلها. انني آكل امام الناس ، كأنني ملك : فاذا أكلت « جيدا » هنأوني ، وتهتف جدتي بالذات: « ما أعقله أن يكون جائعا ! »

ولا أني أخلق نفسي ، انني الواهب والهبة ، ولو كان ابي حيا، لكنت عرفت حقوقي وواجباتي ، لقد مات وأنا أجهلها : فليس لي من حق ما دمت أعطي كل شيء بالحب . ان هناك وصية واحدة : أن أروق. كل شيء من أجل المظهر والواجهة . وكم كان في اسرتنا اسراف في الكرم! لقد كان جدي يعيشني ، وكنت أنا أسعده ، وأمي تذوب اخلاصا للجميع. وحين افكر اليوم بذلك ، يبدو لي هذا الاخلاص وحده حقيقيا ، ولكننا كنا نميل الى التغاضي والصمت عنه. لا أهمية لذلك : ان حياتنا ليست الا سلسلة من الحفلات ونحن ننفق وقتنا في ارهاق انفسنا بالمجاملات والتشريفات . انني أحترم الراشدين شريطة ان يعبدوني ، انني صريح ، منفتح ، رقيق كفتاة . انني افكر جيدا ، وأثق بالناس : فالجميع طيبون ما دام الجميع مسرورين . انني اعتبر المجتمع نظاما تسلسليا صارما من المزايا والسلطات . فالذين يحتلون قمة السلم يعطون كل ما يملكون للذين هم تحتهم . غير اني احترس من الوقوف في أعلى الدرج : فانا لا أجهل انهم يحتفظون به لاشخاص قساة ذوي نوايا طيبة مهمتهم فرض النظام . وانما أنا أقف على درجة صغيرة هامشية ، غير بعيد عنهم، ويمتد اشعاعي من أعلى السلم الى أسفله . وبالاختصار ، انني ابذل كل عنايتي للابتعاد عن السلطة المدنية : فلا تحت ، ولا فوق ، بل في مكان اخر. انني ، انا حفيد كاهن ، منذ طفولتي كاهن . انني املك طلاوة امراء الكنيسة ، بشاشة كهنوتية ، أعامل من هم دوني على انهم مساوون لي: وانها لكذبة تقية هذه التي أفعلها لهم لاسعدهم ويحسن أن ينخدعوا بها الى حد ما . فأنا أتحدث الى خادمتي والى ساعي البريد والى كلبتي بصوت صابر ومعتدل . ان في هذا العالم المنظم فقراء ، وهناك ايضا خرفان ذات خمس أرجل ، واخوات سياميات ، وحوادث قطارات حديدية، وليست هذه الشواذ خطيئة أحد . ان الفقراء الطيبين لا يعلمون ان وظيفتهم هي ان يمرنوا سخاءنا ، انهم فقراء خجولون يمشون بلصق الجدران ، وأندفع ، وأدس في يدهم قطعة من درهمين ، وأهدي اليهم خصوصا بسمة جميلة توحي بالمساواة . انني أجد هيئتهم بليدة ، ولا أحب أن المسهم ، ولكني أقسر نفسي على ذلك : ذلك هو امتحان، ثم انه ينبغي ان يحبوني : فهذا الحب سوف يجمل حياتهم . انا أعلم انهم محتاجون الى الضروري ، ويروق لي ان أكون فائضهم . والحق أنهم مهما بلغوا من البؤس ، فلن يتألموا ابدا بمقدار ما تألم جدي : فحين كان صغيرا، كان ينهض قبل الفجر ، فيرتدي ثيابه في الظلام ، وكان ينبغي له في الشتاء ، حين كان يريد ان يغتسل ، ان يكسر المرآة في دلو الماء . ومن حسن الحظ ان الامور قد سويت منذ ذلك الحين : ان جدي يؤمن بـ « التقدم » ، وانا كذلك: « التقدم » هذا الطريق الطويل الوعر الذي يفضي الي .

(١) احدى كاهنات ابولون في معبد دلف . وقد كانت مكلفة بأن تنطق بالمعجزات ، وكانت تجلس على أثفية فوق شق تنبعث منه أبخرة باردة كانت تحدث هذيانا عابرا . « المترجم » .